الخاتمة

خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج المهمة، هي :

- تبين – بوجه عام – أن العلوم والمعارف الإسلامية والعربية هي التي شكلت أصول الفكر التاريخي، وصاغت منجزه بالمدينة في القرنين (١و٢هـ)، ومن ثم لا وجود لمؤثرات فارسية أو هلينستية أو يهودية في نشأة علم التاريخ عند المسلمين وتكوينه. وإذا انتقلنا من الإجمال إلى التفصيل فقد تبين الآتي :
- بينت الدراسة دور القرآن الكريم وإسهامه في تكوين الفكر التاريخي بالمدينة في القرنين (١و٢هـ)، حيث أمده برؤية حضارية شاملة؛ وذلك من خلال المنظور الذي أبداه بشأن قضية المصير ووحدة الرسالات، وما طرحه من نماذج لتفسير الظاهرة التاريخية ونقدها، وما طرحه من أسلوب في سرد القصص قائم على «التجريد» و «الانتقاء»، وكذا أدوات تفسير النص القرآني ممثلة: في معرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، ومعرفة القرآن المكي والمدني، وهذا ما أفضى إلى النهوض بمنهج البحث التاريخي، بل كان من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى نشأة نمط كتابة السير والمغازي النبوية، وكذا نمط التاريخ العالمي.
- تسنى للدراسة الوقوف على الدور الكبير لعلم الحديث في نشأة الفكر التاريخي وتكوينه بالمدينة في القرنين (١و٢هـ)، حيث أوضحت عمق الصلة بين التاريخ – ممثلاً في السيرة النبوية – وعلم الحديث على صعيد الموضوع، كما بينت أن أعلام المحدِّثين بالمدينة كانوا في الوقت ذاته هم رواد

الدراسات التاريخية بها، وهذا ما أدى في النهاية إلى اكتساب الرواية التاريخية بالمدينة، المنهجية العلمية على صعيد توثيق الخبر التاريخي ونقده، وعلى هذا لا نكون مبالغين إذا قررنا أن منهج أصول الحديث بالمدينة، كان هو في الوقت ذاته منهجاً للكتابة التاريخية بها.

- أوضحت الدراسة أن قواعد منهج أصول الحديث بالمدينة في القرنين (١و٢هـ)، جاءت تلبية لحاجة توثيقية معرفية، كما أنها اتسمت بالمرونة إذا قورنت بمثيلاتها في العراق، وقد ظهر أن هذا الطابع المرن قد أفاد الكتابة التاريخية بالمدينة أيما إفادة، لكونه نهض بـ«الوجادة» بوصفه طريقاً معتمداً في نقل الرواية، وهو ما رسّخ لدى مؤرخي المدينة الوعي بالقيمة العلمية للوثائق، وأهمية الإفادة منها على صعيد المعرفة التاريخية.
- كشفت الدراسة كذلك عن إسهام الفقه المدني، في الارتقاء بالفكر التاريخي ومنجزه بالمدينة في القرنين (١و٢هـ)، حيث أمد هذا الفكر باتساع الرؤية حيال المادة التاريخية، فقد لوحظ أن المؤرخ المدني في تناوله مادة المغازي والفتوح، لم يقصر اهتمامه على وصف المعارك والإخبار عن الممارسات العسكرية، بل تطرق إلى المادة المتعلقة بالتشريع والأحكام، مثل: أمور الفيء والجزية والخراج، فضلاً عن المادة المتعلقة بأمر العبادات، أضف إلى ذلك إسهام آخر يعد من خصائص الفقه المدني، وهو «عمل أهل المدينة»، فقد نهض به الواقدي تحديداً بتوظيفه معياراً نقدياً لتقويم المادة التاريخية الخاصة بالسيرة والمغازي.
- أوضحت الدراسة – أيضاً – أن القيم المعرفية في الإسلام، جعلت من الفكر التاريخي بالمدينة فكراً منفتحاً على غيره من المعارف غير الإسلامية،

التي كانت متاحة أمامه في إطار البيئة الثقافية التي أحاطت به في المدينة، والمتمثلة في: التراث الجاهلي والإسرائيليات.

- على صعيد التراث الجاهلي، بينت الدراسة أن الاتصال بهذا التراث بدأ زمن النبي ﷺ من أجل توجيهه وجهة اجتماعية وعملية؛ وذلك بعد تفريغ محتواه من سوءات الجاهلية وأدرانها، وتأسيساً على ذلك انفتح مؤرخو المدينة - بشكل كامل - على مادة هذا التراث وموضوعاته، وتبين من الاستقراء أنه لم يكن انفتاحاً غير منضبط، بل كان مقنناً وموجهاً بما أسميناه «منهج الانتخاب المعرفي»، فقد استعانوا به على استخراج الأخبار، واستنباط الأنساب، بل استعانوا به في الاستدلال على المواقع والآثار. كما عوّل ابن إسحاق على مادة هذا التراث في بناء نواة نمط التاريخ العام. فضلاً عن أن مؤرخي المدينة اعتمدوا على مادة الأنساب في صياغة نمط التراجم والطبقات، بل بدا أن بنية الأنساب قدمت لهم نموذجاً أولياً لهيكل هذا النمط. وعلى هذا يتضح خطأ ما زعمه عدد من الدارسين والمستشرقين، من أن الإسلام وقف حجر عثرة أمام تواصل هذا التراث مع الواقع الإسلامي في مبدأ الأمر.
- أما معارف «الإسرائيليات»، فتسنى الوقوف على المدلول الحقيقي لمصطلح «الإسرائيليات»، وهو ما أتاح تحديد مكونات بنيته المعرفية المتمثلة في: التراث اليهودي، والفارسي، والهلينستي، وبعد محاولة استقصاء علاقة هذه المفردات بالفكر التاريخي بالمدينة تبين أن التراث اليهودي استأثر دون التراث الفارسي والهلينستي بخاصية التواصل والتفاعل مع هذا الفكر، فكان الأقوى حضوراً؛ ذلك أن مادة قصص الأنبياء كانت أهم أدوات الجدل العقلي، الذي جرى بين الرسول ﷺ واليهود بالمدينة منذ مبدأ

الدعوة بها. وقد تبين أن الوعي التاريخي كان وراء انفتاح ثلة من الصحابة على مادة هذا التراث، وبدافع من توجيهات النبي ﷺ، وتوسلاً بـ «منهج الانتخاب المعرفي»، تواصل مؤرخو المدينة بالجانب التاريخي من هذا التراث. وتبين أن مجال إفادتهم انحصر فقط في الجانب الإخباري، وليس في جانب فكرة التاريخ، وصور الكتابة التاريخية، ومناهج كتابتها؛ لأنه قد ثبت أن الفكر اليهودي كان عقيماً على مستوى المنجز التاريخي، وتأسيساً على ذلك يتبين خطأ مزاعم بعض المستشرقين، من كون النبي ﷺ استقى فكرة التاريخ أو النظرة التاريخية من أهل الكتاب .

- أما فيما يتعلق بالمنجز التاريخي لمؤرخي المدينة في القرنين (١و٢هـ)، فقد تسنى الوقوف على مجموعة من النتائج والكشوف التاريخية المهمة تتمثل في الآتي:

  - تبين أن جل أنماط الكتابة التاريخية المتعارف عليها، نشأت ومورست بالمدينة في تلك الحقبة، ولم يقتصر الأمر بها على دراسات المغازي، كما هو متصور.
  - اتضح أن المدينة في تلك الحقبة كان بها مدرسة ناهضة في دراسات الأنساب، وفي هذا الصدد تسنى الكشف عن نسّابة مدني مغمور وهو ابن القداح، وقد أمكن الوقوف على مادة ضافية تخص كتابه المفقود «نسب الأنصار»، وقد كشفت هذه المادة عن أن منهجه في التصنيف يعد علامة فاصلة في دراسات الأنساب.
  - أما عن دراسات المغازي، فقد تم الوقوف على المدلول الحقيقي لمصطلح «المغازي »بالمدينة، حسب مقصود كتّاب المغازي المدنيين.

كما ثبت أن هذا المصطلح كان هو الشائع والمتداول بالمدينة في تلك المدة، وليس مصطلح «السيرة»، كما زعم بعض المستشرقين والدارسين المحدَثين.

- كما ثبت أن ثلة من الصحابة ﷺ كانت لهم مدونات خاصة بالمغازي، يؤكد ذلك ما تم جمعه من مرويات في هذا الصدد خاصة بعبد الله بن عباس ﷺ، وجابر بن عبد الله ﷺ، وأنس بن مالك ﷺ.
- أوضحت الدراسة أيضاً، عدم صحة ما أجمع عليه الدارسون، من أن أبان بن عثمان بن عفان صنّف كتاباً في المغازي، حيث ثبت أن النسخة التي كانت بحوزته لم تكن من تأليفه، بل من تصنيف شخص آخر «مجهول »، وأن دور أبان في هذا الشأن لم يرق عن مجرد راوٍ لها.
- كما تبين أن المدينة كانت مهداً لنمط «تاريخ الخلفاء»، فمنها جاءت أولى محاولات التصنيف في هذا الشأن على يد اثنين من مؤرخي المدينة هما: محمد بن إسحاق، وأبو معشر السندي.
- اتضح كذلك أن نواة نمط «التاريخ العالمي» نشأت هي الأخرى بالمدينة على يد ابن إسحاق، ويدل على ذلك الأقسام الرئيسة الثلاثة التي انتظمت من خلالها مادته وهي: المبتدأ، والمبعث، والمغازي، واستناداً إلى ذلك عد ابن إسحاق رائد التصنيف في هذا المجال، وليس وهب بن منبه، كما زعم أحد الدارسين.
- تبين أيضاً أن نمط «التاريخ الإسلامي العام» كان مدني المنشأ أيضاً، ويشهد على ذلك كتاب «التاريخ الكبير» الذي صنّفه الواقدي.
- كما ثبت أيضاً أن إرهاصات التصنيف في مجال «الفتوح» نشأت

بالمدينة، وقد تسنى الكشف عن أن ابن إسحاق كان له مصنف في الفتوح الإسلامية، وهو بهذا يعد أيضاً رائد التصنيف في هذا المجال، ثم تبعه بالتصنيف في ذلك بالمدينة الواقدي من خلال عملين: أحدهما تناول الفتوح بوجه عام، والثاني متعلق بغزوات الصوائف والشواتي.

- كشفت الدراسة كذلك عن أن الفكر التاريخي بالمدينة، كان له السبق في ولوج موضوع «الخطط والآثار»، وعلى هذا يسقط إجماع الباحثين المحدَثين على أن هذا النمط إبداع مصري نشأ على يد ابن عبد الحكم.

- كما بينت الدراسة أن المدينة شهدت أولى محاولات التاريخ المحلي (المدن)، فقد نهض بعض المؤرخين بإعداد مصنفات أرخوا فيها للمدينة، وهم: عبد العزيز بن عمران، ومحمد بن الحسين بن زبالة، وأبو غسان محمد بن يحيى. ولم يقتصر على التصنيف على التأريخ للمدينة، بل وضع أحدهم مصنفاً أرخ فيه لمكة وهو محمد بن عمر الواقدي.

- ثبت من خلال الدراسة أيضاً أن بدايات نشأة نمط «التراجم» و«الطبقات»كانت بالمدينة، حيث تبين أن الواقدي أول من أبدع هذا الشكل من الكتابة التاريخية، طلباً لتفعيل أداء منهج أصول الحديث في جانب الجرح والتعديل ونقد الأسانيد، وعلى هذا يستبعد أن يكون نشوء هذا النمط التاريخي بأثر من التراث الإغريقي.

- كما أبانت الدراسة أن الفكر التاريخي ومنجزه ومناهجه، ولاسيما في مجال المغازي، كان له أثره الواضح في النهوض بالكتابة التاريخية، في مختلف الأقاليم والأمصار، سواء على مستوى المادة التاريخية، أم على صعيد المناهج والقواعد العلمية.

- أوضحت الدراسة كذلك حقيقة مهمة، وهي أن مؤرخي المدينة مارسوا قواعد مناهج البحث التاريخي المتعارف عليها حديثاً، بل طبقوها، بشكل أدق، على مستوى نقل الرواية، ومعايير نقد المصدر والمضمون، وكذا العناية بالوثائق، وبيان طرائق نقدها، إضافة إلى استخدامهم المنهج «الحولي» في ترتيب الأحداث، والمنهج الميداني في تحقيق النصوص، ومنهج «الإسناد الجمعي» الذي يعد - بحق - إبداعاً منهجياً بكل المقاييس على الصعيد التاريخي.

• أما فيما يتعلق بالمؤثرات السياسية، والاقتصادية، والمذهبية، والذاتية في الفكر التاريخي ومنجزه، فقد تسنى الوقوف على مجموعة من الحقائق والكشوف التاريخية المهمة، لعل من أبرزها:

- تبين أن موقف الأمويين المتعنت من دراسات المغازي حتى عهد عمر ابن عبد العزيز، نتيجة لأسباب سياسية، عاق منجز مؤرخي المدينة في هذا المجال من أن ينتشر، وتتواصل مع حركة الفكر التاريخي بالشام طوال هذه المدة في تلك الحقبة.

- كما اتضح أن تدهور الأوضاع الاقتصادية التي حلت بالمدينة، دفع بأحد المؤرخين إلى العبث بمادة المغازي، بل دفع بعدد من أعلام الفكر التاريخي، إلى نزوحهم من المدينة إلى الأمصار الأخرى طلباً لسعة العيش، وهذا ما أدى إلى تراجع حضور الدراسات التاريخية بها مع نهاية القرن الثاني الهجري.

- برهنت الدراسة بعد التوسل بمنهج «الجرح والتعديل»، ومنهج «السردية»، ومنهج «مقارنة النصوص»، أن كتاب الردة «المنسوب إلى الواقدي قد نالته يد الوضع والتحريف. وكذا أيضاً كتابه المتداول

والمعروف بـ «فتوح الشام». كما ثبت كذلك أن المخطوطة المعنونة بـ«غزوة مدينة تكريت» مكذوبة وموضوعة على ابن إسحاق، وكذا نص كتابه الأشهر في السيرة والمغازي، حيث تعرضت بعض مروياته للتبديل والوضع نتيجة صنيع بعض رواته.